التشاكل والفعل الاستعاري في النصوص الأدبية

قوتال فضيلة*

إن الاستعارة حقل انعكاس كبير جدا، لأنها الوحيدة من بين الصور البيانية التي تؤثر أكثر وتوحي بواقعية أكبر، مما يسمح إذن بتحقيق الكلام في أفعاله.

مثلت الاستعارة طويلا موضوعا بلاغيا بوصفها صورة بيانية تقوم على المشابهة، مما يتوافق لسانيا مع العلاقات الحاصلة على المحور الاستبدالي، أو محور المماثلة كما يصف "ياكوبسون"(1963)، حيث الكلمة هي دعامة المعنى. وتعرفها جماعة Ψ، تتمة للبلاغة الكلاسيكية، بوصفها انزياحا بالنسبة لدرجة الصفر الكائنة عند القارئ.

إن مشكلة المعنى التي يطرحها الفعل الاستعاري تحصرها مسألة إعادة التشكيل السيمي حيث الانزياح يتلاءم مع تغيير في التركيبة السيمية (combinaison sémique) مما يؤدي إلى تغيير في المسار التأويلي عند المرسل إليه، وهي الآلية التي قننها الطرح السيميائي المحايث.

إن هذه الآليات الإجرائية، وإن تعلقت بمستوى التلقي عند مستقبل خطاب ما، فهي في الحقيقة بعيدة كل البعد عن استقراء وحداته الاستعارية إلا في إطار المعنى الواحد الناتج عن آلية التشاكل. وفيما يلي سأحاول بسط مفهوم(isotopie) الذي اقترحه "غريماس" كإجراء قرائي للنصوص بوصفها تركيبات سيمية.

---

* باحثة أكاديمية المركز الجامعي بتيارت/ الجزائر

القارئ فهم معناها لعدم توحد السيمات السياقية و تشعب المقولات الدلالية و تنافرها، مما يعلل صعوبة قراءة بعض القصائد الشعرية المعاصرة. حيث نسمي ذلك باللامعنى (non sens) و ليس الغموض (ambiguite)، لأن الثاني – على عكس سابقه – يعرف بوصفه " تعدد المعاني لا غيابها "(10).

إن هذه المفاهيم التي يقدمها"غريماس" هي الدراسة الأكثر شهرة بالتعامل مع الخطاب السيميائي بوصفه موضوعا ذاتيا، مفصولا عن سياقه التلفظي والمقامي. فهي إذن غير ملائمة لتناول العملية الاستعارية، التي لا يقتصر ملفوظها على التدليل فقط بل يتجاوز ذلك إلى الإعلام عن واقع ما قد يتعلق بسبب اختيار صاحب النص لهذا المستعار الدلالي دون غيره من المواضيع الدلالية الموجودة في العالم وتناسب أن تكون هي كذلك مستعارات لذات الفعل التشبيهي، كما قد يتعلق أيضا بما يؤديه هذا الملفوظ من خلال هذه الاستعارة من أفعال كلامية في حين تقتصر الآليات التي يقدمها التشاكل في شكل تفاعل دلالي داخلي على دراسة الجانب الموسوعي.

إن التشاكل هو مفهوم يخرج النظام من سياقه الخارجي العام ولا يتعامل معه إلا بوصفه مجموعة من الوحدات التي تتواشج دلاليا مع اشتراك في التراكيب السيمية. إن هذه المنمنمات الدلالية تعجز في كثير من الأحيان عن إنتاج المعنى الواحد، إذ تنتج معان متعددة لا يمكن للقارئ أو المتلقي عامة أن يحدد واحدا منها، ولا تقدم الاستعارة إلا نمطا مماثلا للتعدد الدلالي لأنها إذ تقدم عبارة بمعنيين كل الاختلاف، تحاول الجمع بينهما دلاليا لكنها لا تعلله أمام كل متلق، فيسبح القارئ في غمرة هذا التواشج الدلالي المتعسف يبحث عن قرابة ليست أصيلة بين كائنين دلاليين، لكل منهما موقع خاص لا يلبث أن يتماس مع الآخر.

إن التشكيلات السيمية قد تمثل لكلمتين في استعارة تصريحية وردت في جملة شعرية مثل: "إنيمنديل رث معلق على غصن شجرة يابس"،حيث تختلف النواة السيمية لكلمة "إني": /إنساني/ عن النواة السيمية لكلمة "منديل":/الجماد/ و لا ارتباط بينهما إلا في عنصر سيمي ثانوي قد لا يتضح في أمثلة استعارية أخرى. إذ يمكننا الحديث عن استعارة مفهومية واستعارة معجمية حيث الفارق قائم على مدى التعالق بين التركيبتين السيميتين اللتين يفرضهما ركنا الاستعارة إن صرح بهما أم لا.

2- التشاكل بين المرجع والمرجعية:

إن غموض أي نص يمثل عند"غريماس" آلية التشاكل لأنه يخصها بوظيفة تقديم القراءة "...الناتجة عن قراءات جزئية للملفوظات بتقليص غموضها من أجل البحث عن القراءة الوحيدة "(11). و لكن أيمكن حقا لهاته الآلية أن تزيل الغموض تماما عن النصوص اقتصارا على البنية المحايثة للسان (المفهوم اللساني) ؟ على الرغم من أنه لا يمكن فصل اتساق الكلام عن الماصدق في الواقع.

هل يمكن إذن، إدخال المعطيات الأيدلوجية ضمن السيمات النوعية لسيم سياقي، مع العلم أن طرح غريماس لا يخرج عن دفتي السيميائيات المحايثة التي تظل وفية للبنية الدلالية ؟ و إن لم يكن الأمر كذلك، فهل يمكن، إذن، تقبل إطلاق مفهوم التشاكل على المعطيات السيميائية المحايثة مع العلم أن معنى الجمل قد

السيمات النووية، و السيمات السياقية، يفترض إذن وجود اتساقين:1- التشاكل الدلالي، 2- التشاكل السيمولوجي(4)

إن مفهوم التشاكل الذي اقترحه " غريماس " يعود في أصله إلى المشروع الدلالي الذي قدمه " ب. بوتيي(5) Pottiet فيما يخص مصطلح (الكلسيم)، إذ يعده هذا الأخير جزءا من السيمم يضم مجموع السيمات النوعية(6) حيث يختلف هذا التعريف عما قدمه " غريماس " لذات المصطلح بوصفه سيما سياقيا.

إن مفهوم " بوتيي "، إذن يقارب منهجيا التقديم النظري لمصطلح التشاكل (isotopie) عند " غريماس " الذي يعرفه بوصفه " مجموع المقولات الدلالية المتكررة الذي يضمن بوضوح قراءة المحكي، المبنية على القرارات الجزئية للملفوظات "(7).

صحيح أن هذا الوجود الدلالي المتكرر هو الذي ينفي الغموض عن أي خطاب سيميائي إلا أننا قد نتساءل عن الطبيعة السيمية لهذا الحضور بمعنى إذا كان ما يتكرر داخل النص هو الكلاسيم أم مجموع سيمات مختلفة تدخل ضمن مقولة دلالية مشتركة ؟ فمن الممكن أن تقوم السلسلة الكلامية المتمثلة في: (تبسم وجه الصباح) على مجموعة لكسيمات يضم كل واحد منها سيما نوعيا مختلفا

حيث يمكن أن يفهم آخر لكسيم في ضوء سابقيه بإكسابه السيم النوعي / إنسان / إلا أن هذا الكلسيم أي السيم السياقي لم يكن حاضرا في التربية السيمية لـ (الصباح) إلا أنها اكتسبته ضمن سياق معين أضاف إليها سيمات جديدة نعتية من مثل: التفتح، الصفاء، البراءة ضمن ما تحمله السلسلة الاستبدالية للكسيم.

نستنتج مما سبق أن السيم السياقي ليس هو السيم المشترك الذي يحضر بجميع التركيبات السيمية لكل وحدة دلالية، و إنما هو المقولة الدلالية التي تضم مجموع السيمات المتقاربة.

و من ثم فإن آلية التشاكل لا تقوم على السلسلة النظيمية أو الترابطية للكلام وحدها، و إنما ينشئها كذلك المحور الاستبدالي اللاخطي لكل لكسيم. حيث يمكن تعريف التشاكل "بوصفه ظاهرة استبدالية (paradigmatique)"(8).

يمكن للسلسلة الكلامية السابقة أن تقدم معنى آخر بإكساب اللكسيمين الأولين (تبسم) و (وجه)، سيما نوعيا ينفي السيم السابق / إنسان / يفتح محور الاستبدال لكل واحد منهما ليقدم السيمات الآتية = الفرح + الصفاء + النقاء.... مما يغير المعنى السابق و يقدم معنى جديدا يكون فيه الاتساق اللفظي قائما على لكسيم (الصباح) مما يبين أن آلية التشاكل لا تقوم على السلسلة الكلامية الصغرى، و إنما تتحدد من خلال مجموع النص في اتساق أكبر يخصص بحق أي سيم نوعي يقصده الكلام. لأن " التشاكل لا تحده الجملة في تفردها و لا في ازدواجها و لا حتى في تسلسلها و تتابعها "(9) بل قد يتجاوز ذلك إلى النص. إلا أن الكلام العادي اليومي يمكن له أن يفهم في مستوى الجمل لطبيعته المباشرة، ذلك لأن تقليص عدد المعاني المحتملة للكلام يسهل القبض على المعنى الواحد. و بالعودة إلى الخطابات ذات المستويات الإيحائية التامة التعقيد يصعب على

انطلاقة معرفية كهاته ترسم اتجاها خاصا، محصورا ضمن مقولة سابقة يبحث فيه عن بنية المعنى في شكل المحتوى. فهل يمكن إذن أن نعرف جوهر المحتوى بوصفه المكونات الذاتية للمرجع، ونعد شكله مجموع أجزاء المفهوم؟.

إذا كان "غريماس" قد انتقل من العالم إلى المعنى، ضمن تقليص فينومينولوجي يهدف إلى أن يفرق بين الواقع – بمعناه الخاص – ومعنى الواقع، فإنه يميز بين خصائص الشيء و مكونات السيمم المتمثلة في السيمات (Sèmes)، و يحول اهتمامه إلى هذه الوحدات الصغرى. إلا أن هذا الفصل يظل إجراء منهجيا استدعته دقة علمية "غريماس " و دفع إليه مشروع سيميائيات تيبولوجية (Typologique). ذلك لأن كليهما مرتبط بالآخر، في حين أنه لا وجود لـ " علاقات تربط مباشرة بين السيمات و أجزاء المرجع(14)لأن إمكانية القول بذلك في نسق تعييني تستحيل ضمن نسق إيحائي، كما هو الحال بالنسبة للاستعارة ؛علما بأن السيمات تصنع علاقات مع سيمات مجاورة لسيمم آخر- حتى يضمن اتساق الكلام – بدلا من أن تكون علاقات مع الخصائص المرجعية. حيث تخرج الكلمة، إذن عن إطار معناها الموسوعي (encyclopédique) كما يسميه أمبرتو إيكو(15)؛ مما تقدمه لنا المعاجم والقواميس من معان تعيينية. فكيف يسمى هذا الانزياح؛ أهو تملص عن مرجع ما لصنع مرجع آخر ؟ أم أنه تحول من الدلالة على مرجع إلى الدلالة على آخر. و إذا كان الأمر كذلك فإن فرضية تأثير تغير السيمات في تغيير المرجع، و تأثيره فيها، ستنفي حقا فكرة انفصال السيمات عن مرجعها الواقعي. حيث يستدل "راستيي" في كتابه (Sémantique interprétative) على هذا النفي باستحالة تحديد عدد السيمات المستعملة داخل أي لغة طبيعية، لأن اللامحدود لا يمكنه أن يحيل على المحدود الواقعي /المرجع/. إذا كانت أي ،كلمة (لكسيم) تحتوي على مجموعة من المعاني المحتملة ضمن تقديمها المعجمي فإن كل معنى من هذه المعاني يحيل إلى مرجع خاص وفقا لمجموع سيمات معينة. و قد يحيل إليها سيم واحد إذا كان المكون الوحيد للتركيبة السيمية للكسيم معين.

تجدر الإشارة هنا إلى التمييز الذي يقيمه غريماس بين السيمات السياقيةLes classèmes والسيمات النووية (Sèmes Nucléaire)حيث يعد الأولى ذات طبيعة داخلية بوصفها مقولات الفكر الإنساني؛ أما الثانية فهي في نظره ذات طبيعة خارجية بوصفها عناصر فهم العالم الخارجي التي تمظهر الدلالة.

ونتيجة لكل ذلك فإن نوعا من هاته السيمات سيكون ذا علاقة بالخارج الذي لا يقصد به " غريماس " الواقع المحض و إنما صوره السيميولوجية (figure sémiologique) و لهذا فإن الجزم بانفصالها أو اتصالها المباشرين يعد جزما عشوائيا، إذ هو متعلق بنوعها التابع للنسق الذي وضعت فيه فضلا على إمكانية تحول السيم ذاته إلى سيمم آخر يضم تشكيلة سيمية جديدة، و من ثم فإن السيم يستدعي العودة من جديد إلى اللسان – الموضوع(16)مما يتطلب تطبيق تحليل سيمي جديد.

إن إشكالية الإحالة المرجعية و الدلالة هي مشكلة أقدم من بحث غريماس و سيميائيته إلا أن هذا التقسيم البنوي للدلالة هو الذي فتح على نفسه بابا كهذا سيطرح كذلك تساؤلا حول أسبقية الوجود، قائما في البداية، على أن هذه السيمات ليست وحدات لسانية و إنما هي "تشكيلات مفهومية "(17)حدد "راستيي"

يتعلق بالشروط التي أحاطت استعمالاتها مما يحيل إلى معلومات خارج – لسانية، وهل يمكن أن تحقق العلامة –الاستعارة أن تكون في غنى عن هذه المعطيات الخارجية إن المتعلقة بصاحب النص أو متلقيه. هب أنني أصبت يوما بذعر وأنا أتفاجأ بالمكنسة الكهربائية وهي تلتهم يدي، فهل سأستقبل كغيري الاستعارة التي يقولها الدكتور أثناء محاضرة في البيولوجيا: "الأنف هو مكنسة كهربائية جيدة جدا"، من المؤكد أن المعنى الحاصل في ذهني لن يخلو من ألم واشمئزاز كبيرين.

لقد أقر (Barrondonner) بخطئه في محاولة دراسة التشاكل و تقديمه بوصفه قيمة قارة و حدثا سيميائيا محايثا، و اقترح توسيع مجال اللسانيات ليضم مجموع المعلومات المقدمة من خلال الأنساق التواصلية أي مجموع المواضيع السيميائية، كالمعرفة، و الثقافات الإيديولوجية، الذكريات، و الآراء .....الخ(12) التي تتعلق باتساق الخطاب الكلامي.

يمكن إذن التساؤل عما إذا كانت السيمات التي اقترحها " غريماس " بوصفها مكونات مرفولوجية دلالية، خصائص تميز المرجع ذاته، أم أنها أجزاء من المفهوم المرافق له، أم أجزاء المحتوى ؟ وهل يمكن للاستعارة أن تميز خصائصهُا السيمية مرجعَها الذي لا يمكن تعيينه مباشرة.

صحيح أن " غريماس " حين فصل المستوى السيمولوجي عن المستوى المحايث، انطلق انطلاقة موجهة في تقسيم بنوي للمعنى. إلا أن الجزم في أمر كهذا يستدعي التساؤل عما إذا كانت هذه السيمات تابعة حقا للمستوى الذي حصرها فيه، من حيث كونها متلائمة معه في الطبيعة، مع الفصل بين المفاهيم الآتية: المرجع؛ المفهوم؛ المحتوى. حتى تتبين التقسيمات المقدمة في الطرح الغريماسي.

لنفترض في البداية كلمة معينة(لكسيم Lexème) مثل جسم. تمثل هذه الكلمة مرجعا له مكونات في الواقع = رأس + أعضاء + عضلات + دم + عقل +... تشترك هذه المكونات في مجموعها، في خصائص معينة مثل: كائن مادي + حي + حيوي + مخلوق + فان + ... حيث ستجتمع هذه الخصائص لتشكيل المحتوى الذي يربط بين المكونات والخصائص. و لكن إذا كان الأمر كذلك، أيمكن أن تعد الخصائص حالات المكونات الواقعية ؟ أم أنها تدخل في جهة المحتوى حيث لا تصل الواقع و إنما هي حضور الشيء في االذهن (Le signifié عند دوسوسير) ؟ و أين هو المعنى بين كل هذا ؟.

إنها إشارات لا تستدعي الغموض في النظرية الدلالية الغريماسية، و إنما القصد منها هو التأصيل لفعل وصفي ينبغي التثبت على منطلقات تصورية مؤسسة، و حتى لا يبدو هذا اللبس لبعض من المتطلعين على أهم مقولات هذه النظرية. مع العلم أن الانطلاقة التي انطلق منها " غريماس " تاركا وراءه تقسيمات مشهورة و بالأخص تقسيم " دوسوسير" (الدال / و المدلول) متبنيا تقسيم " يلمسليف" (التعبير / المحتوى)(13) باحثا في المحتوى دون التعبير.

إن ثنائية " يلمسليف " (و قبله دوسوسير) التي تقصي المرجع من التمثيل التنظيري للعلامة هي كذلك موضوع نظر و تبصر في البحث اللساني جملة. وإذا كان "غريماس" قد خص في بحثه المحتوى أو المفهوم فإن

سميولوجيا القراءة وإشكالية التأويل

محمد خرماش *

1 - إشكالية القراءة:

يقع العبء كل العبء في فهم النص المكتوب على القارئ الذي يقيم معنى ويؤسس مرجعية، ومن ثم تنطرح مسألة القراءة بجميع أبعادها؛ وحينما نريد الحديث عن فعل القراءة وما يترتب عليه من إنجازات، لابد أولا من استحضار القارئ الذي يحرك ذلك الفعل ويحقق تلك الإنجازات، وبغض النظر عن الاختلافات والتصنيفات التي قام بها الدارسون والباحثون في هذا الموضوع، فان مبتغى المعرفة الأدبية يقضي بأن تتحدد مواصفات القارئ الفاعل والمفعّل بدءا من النص ذاته أي من خلال القدرة على الاستفادة مما يوفره من معطيات قرائية، وعلى استثمار ديناميته؛ ومن هنا تنبعث سميولوجية القراءة التي تحقق استراتيجية الكاتب والقارئ معا، وتؤسس الإطار المشترك لعملية التواصل الأدبي، إنها الفعل المتولد من خلال المكونات النصية والمتجه سهمه نحو آفاق الفهم والتأويل ضمن منطق السؤال والجواب أو الحوار المثمر بين القارئ وما يقرأه وهذا يعني أن إشكالية القراءة مرتبطة بإشكالية الخطاب أي بما يتهيأ من وضعيات لسانية وخطابية تساعد على تحقيق القصد المبيّت الذي يراد تسريبه من خلالها.

* - باحث أكاديمي من المغرب.

وظيفتها الإحالية في فعل التسمية داخل لغة ما. تكون فيها أشكال العلاقات التي تحقق السيمات سابقة على المفاهيم التي تشتغل ضمنها و على الكلمات التي تقدمها نتيجة لذلك. مما يعود إلى نفي الطبيعة المستقلة للسيم، إذ لا يعرف من خلال اختلافه ضمن مقولة سيمية ما و علاقاته فيها، لأن الاختلاف السيمي هو في الحقيقة علاقة افتراض مؤقت(18) يقوم عليها المعنى.

فإذا كانت الدلالة ناتجة عن العلاقة التي تربط بين " المعنى و المرجع "(19)فإن المفهوم – كما يعرفه " فريج "Frege"– يقوم بوصفه، بالضرورة، محمولا... فلا يمكن أن نلحقه إذن إلا بمفهوم آخر و ليس بمرجع "(20)مما يميز الإحالة عن المكونات المرفولوجية التي تختص بمفهوم الشيء، لا بوجوده الفعلي في الواقع. ذلك ما يفسره تعدد الكلمات من لسان واحد للإشارة إلى الشيء ذاته. و من ثم كان بالإمكان إنتاج معنى ما دون تحقيق الإحالة(21)كما هو الحال بالنسبة للمعاني الخيالية التي ليس لها أصل في العالم الواقعي. لأن المرجع يختلف عن المرجعية التي تظل داخل اللغة، لأنها توضح " علاقة الكلام بالعالم و ليس العالم بذاته "(22)و لكن هل يمكن حصر المرجعية في شروط الحقيقة أم أنها العوالم الممكنة التي يحتويها الكلام.

و من ثم فإن طرح غريماس يقارب مفهوم المرجعية المحايثة، المحمولة على أن الكلام لا يحيل على نفسه كما هو الحال بالنسبة للتعاريف المقدمة من قبل القواميس، والموسوعات. إلا أن العلامة في حد ذاتها لا تكتسب طبيعتها الإشارية إلا لكونها تحيل على شيء آخر مختلف عنها، سواء أعلمناه أم لا، لأن عملية الوصف لا تقوم إلا إذا كان المدلول مغايرا للعلامة التي تدل عليه.(23)

فإذا كانت الاستعارة نوعا من العلامات التي تحقق اختلافا أكبر من الاختلاف المألوف إذ إنها تحيل على مرجع غريب عن مرجعها الأصلي، فأي مرجع يمكن أن تحيل عليه أهو المرجعية التي تظل داخل اللغة؟؟ لا لأن الاستعارة لا تحققها بشكل مباشر إذ تنطلق من الخارج المؤثر على الكاتب بتماثلاته العيانية والمعنوية.

إذا عد " فريج " مفهوم الدلالة التي تقوم على قيمة الحقيقة (التي أسسها "روسل" Russel على البناء المنطقي للكلام) فإنه يميز، بذلك بين اللغة و اللغة الواصفة(24)، التي نصفها هنا بالتعبير عن العلاقات الدلالية، الذي يرى " فتجنشتين " بأنه وظيفة المنطق في حد ذاته. إلا أن هاته اللغة الواصفة التي يستعملها " غريماس " في مسمياته المرفولوجية، لا تعدو أن تكون تمثيلا للمعنى (Représentation du sens)(25) إنها آليات وصف " لها هذه الوظيفة، و هي على اتصال دائم بما تحيل عليه "(26) لأنها تمثل في مجملها مفهوما، ثم معنى هذا المفهوم. إلا أن مصطلح " تقديم المعنى " متعلق بعملية فهم الكلام. ذلك لأن تغير الشخص المتلقي قد يغير فهمه بتغيير التقديم الفردي الناتج في ذهن كل شخص عن سماع أو قراءة استعارة واحدة. بمعنى أن هذا التقديم ليس قارا و ثابتا، و نهائيا. و إنما يتعلق بالمعلومات الإحالية التي هي في ذهن المتلقي. قد لا يتجلى هذا الأمر في المعاني التقريرية المتعارف عليها، إلا أن المعاني الأدبية أو الإيحائية، كالاستعارة ينبني فهمها على ما يقدمه المتلقي من معطيات مرجعية. هاته الأخيرة التي يعدها "فينبي" (Vigner) في كتابه (القراءة من النص إلى المعنى) أساسية في فعل القراءة أو التلقي بصفة عامة، إضافة إلى صيغ التعبير و منطق التفكير، و المنطق الحجاجي(27).

وإذا كان " غريماس " يعمد إلى أن يتناول المعنى المحايث في انفصاله عن متلقيه فإننا لا نتحدث بصور◆ المعاني و لا نهدف إلى تقديماتها و إنما " نفترض معان تقريرية"(28) على المتلقي أن يصنع منها عوالم ممكنة تقوم على تلك الصور و التقديمات.

فيما سيكون على الباث و المتلقي معا أن يمتلكا كفايات لسانية تمكنهما من إقامة وفك الشفرات المستعملة، حيث تضيف " Kerbrat"(29) إلى ذلك العامل النفسي ؛ والكفايات الثقافية، أو الموسوعية التي تمثل " مجموع المعارف العالمية الضمنية التي يمتلكانها "(30) و الكفايات الايدولوجية المتمثلة في " مجموع الأنساق التأويلية التي تقوم بتقييم المحيط المرجعي "(31) حيث تتجمع هاته الكفايات مع الكفاية الأساسية؛ أي اللسانية من أجل تحقيق الفعل التواصلي بالوصول بالاستعارة إلى معنى لا يكون بالضرورة موحدا بين قراء النص.

إن هذا التقديم المغاير لعمليتي إقامة السنن "encodage" وعملية فكه "décodage" هو الذي دفع "Kerbrat" إلى نقد الخطاطة التواصلية الياكوبسونية حيث يؤدي كل عنصر من هاته العناصر وظيفة لسانية مختلفة. و نتجت عن هذا النقد خطاطة تواصلية جديدة مثلتها "Kerbrat"(32) في خطاطة تفصيلية تتلاءم مع التعريف الذي يعد التواصل اللساني وظيفة اللغة المرجعية التي تقوم على ثلاث آليات مرجعية(33):

المرجعية المطلقة: حيث يعرف اعتمادا على الشيء س و حسب، دون اللجوء إلى أية معلومة ملحقة.

المرجعية المتعلقة بالسياق اللساني: ففي المثال (يا أخت هارون ...) لا يمكن أن تحيل كلمة أخت على الشيء س إحالة مطلقة لأنها متعلقة بسياق لساني " هارون " ولأن هذا الشيء ذاته يمكن أن يعرف بطريقة أخرى◆◆.

المرجعية المتعلقة بمقام التواصل: و تمثل المعطيات المختلفة التي تزامن عملية التواصل و تؤثر بذلك في التقديم، و التأويل المرجعي للوحدة الدلالية.

بناء على هذا ستكون الافتراضات الضمنية المقدمة من قبل المتلقي إما مأخوذة من الملفوظ لإثراء الكفاية الثقافية، و إما مستدعاة من الخارج للسماح بتأويل النص (34) فهي معلومات نصية أو خارج نصية تعيدنا إلى تعريف السمات المرفولوجية التي قدمت بوصفها صور مجردة، تكاد تقابل – في ضوء هذا الطرح – ما يمتلكه الشخص من مجموع المعارف و الاعتقادات الخاصة بالشيء الذي تحيل عليه الكلمة. لأن الخطاب – حسب "Kerbrat" – "هو النشاط الذي يفجر المعارف المسبقة، في ذات الوقت الذي يقدم فيه الجديد بدون انقطاع"(35) إلا أن التعريف السيمي الذي يحدده " غريماس " لا يتوافق مع هذه الرؤية التي تتنافر مع مبدأ المحايثة مع تأكيد أن الاهتمام بالمعطيات الخارج- لسانية، سيكون حتما، خدمة للعملية الوصفية ذات المواضيع الكلامية وليس العكس. ذلك لأنه يأخذ بمفهوم متفرد لـ " المعنى " مقارنة بالمقارنة التي يقيمها "Lyons" بين معنى الكلمة و معنى الجملة(36).

فإذا كانت الاستعارة في أصلها هي مماثلة موضوعين من العالم الخارجي، أفلا يسترجع القارئ هذه المعطيات الخارجية من أجل فهم سر الربط بين معنيين مختلفين تماما؟

ثم إن المعنى الناتج عن الفعل القرائي أهو المعنى الذي قصده الكاتب بالضرورة، أم أنه المعنى الذي تنتجه السلسلة السيميائية، أي المقصدية كما يصف "غريماس"، أم أنه المعنى المتغير في ذهن كل قارئ، وإن في المعطيات النفسية المرافقة للمعنى، تلك التي تفرضها الذكريات.

3- التشاكل أهو اتساق أم انسجام الخطاب ؟؟

قدم "راستي" (François Rastier) اقتراحا حاول من خلاله الفصل في هاته الإشكالية، إذ رأى بان اتساق أي نص يرتبط بعلاقاته الدلالية الداخلية، و أن انسجامه مرتبط بعلاقاته مع المحيط الخارج – لساني، بوصفه مجموع الظواهر السيميائية المرتبطة به. و من ثم فإن الاتساق يدخل ضمن المستوى الداخل – لساني (intralinguistique) أما الثاني فيدخل ضمن المستوى البيسيميائي Intersémiotique. و لكن اين يمكن تحديد التشاكل ؟ أهو الاتساق أم الانسجام ؟.

يمكن أن يحصر التشاكل – حسب " غريماس " – في التعريف الأول أي الداخل –لساني، ذلك لأنه لم يخرج سيميائيته ككل عن المستوى الداخلي للسان، فلا مكان، إذن، لمفهوم الانسجام داخل الطرح الغريماسي، إن يتجاوز المستوى المحايث، إلا أن هذا الفصل المنهجي لا يمكن تصوره ضمن طبيعة الكلام العادي لأن اتساق الكلام يقوم على انسجامه مع ما يحيل عليه. أخذا بعلاقة القصدية، و الماصدق. حيث يمكن أن نعد الماصدق هو ذاته وظيفة القصدية(37) علما بأن إشكالية المدلول تتعلق بالاحتمالات الدلالية الأساسية في عملية تحقيق الإحالة لأن "....تحديد القصديات يقدم إمكانات استعمال الماصدق(38) حيث ستكون قصدية تعبير ما الاحتمالات التي تسجل المدلول. و الماصدق هو رتبة كل الأشياء التي يمكن أن تحيل عليها الثنائية تعبير / مرجع. فيما يعرف " شارل موريس " (Moriss) مفهوم (Designatum) بنوع الأشياء، أو رتبة الأشياء. مما يدفع إلى القول بالمقابلة المنطقية الشائعة بين فهم المصطلح و مجال تطبيقه. ويقابل المناطقة الأنجلوسكسونيون القصدية، أو الفهم بالحقيقة المنطقية. فهاهو " كارنب " Carnap يقدم القصدية بوصفها الافتراض الذي تعبر الجملة عنه؛ أي المفهوم الفردي. أما الماصدق فهو قيمة الحقيقة التي تكتسبها (الخطأ، أو الصواب). فهو، إذن، الفرد الذي تقصده(39).

مما يدل على أن الحقيقة تساوي – في هذا الطرح – الاتساق بين الاستعمال الإثباتي للغة و بين الاستعمالات الأخرى كالنشاط؛ الخبرة؛ أو المعرفة العلمية. إذ يعد " سان أونسلم (Saint Anselme) " حقيقة الدلالة ما يطبق على كل جملة إثباتية، منظمة سواء أكانت صائبة أو خاطئة نظريا و تجريبيا"(40). ذلك لأن." حكم الصحة أو الخطأ لا يفرغ أبدا، القيم التي يستطيع المتكلم أن يكتبها ملفوظة "(41). و لكن علما بأن الاستعارة قد تقدم شروط حقائق مختلفة، سيكون، إذن، تحديد حقيقة الدلالة تابعة لا للافتراضات، التي

تقدمها الجملة فحسب، و إنما ستقوم كذلك على معلومات خارجة عن المستوى المحايث للكلام لإنتاج حقيقة دلالية واحدة. و لهذا كان الوصول إلى معاني جمل معينة – حسب منظرين كثر – هو " معرفة شروط حقيقتها و فقط "(42) ذلك لأن محاولة فهم معنى جملة أدبية ما ستظل مستحيلة بغياب مجموع افتراضات تقدم مستوى تحتي أو خلفي يحدد الأسيقة التي تجد كل جملة من خلالها تلفظا مناسبا. مما يدعو إلى القول إن هذا الفهم قد يتمثل في تلاقح شروط الحقيقة مع سياق التلفظ الأدبي(43) ذلك لأن المعنى الأدبي – في نظرية سير Searle – لا يمكنه أن يستقل عن السياق أبدا. و قيامه على عدد من الافتراضات يفسر حالة الغموض الأدبي في القصائد الحديثة، التي يعللها العدد اللامحدود لسلسلة الافتراضات التي يقدمها المعنى. علما بأن هذه الافتراضات لا تمثل أجزاء المحتوى الدلالي، و إنما هي افتراضات تطبيقه، فهي بمعنى آخر، تابعة للماصدق و الحقيقة ؛ أي أنها انسجام الكلام لا اتساقه مما يدفع إلى اعتماد الملاحظة السابقة التي تقر بقيام الاتساق على انسجام الكلام واتصالهما معا.

صحيح أن المعنى، حسب ما تقدم، مرتبط بمجموع من المقولات الدلالية: شروط الحقيقة؛ الفهم؛ التضاد؛ و مقولات نفسية. إلا أن هذا الارتباط لا ينفي وجود المعنى ذاته منفصلا عن كل هاته الافتراضات، لأن " أي فرضية تقدم الظاهرة (أ) التي لا يمكن أن تعرف إلا بارتباطها بظاهرة أخرى (ب) لا تؤول إلى البرهان على أن (أ) غير موجودة "(44) و من ثم فإن التشاكلات المحايثة (أو الاتساق) موجودة بذاتها، و لكن في تعالق مع التشاكلات "السيمولوجية". هذه الأخيرة التي قسمها "راستيي" (Rastier) إلى نوعين: أفقية، و عمودية(45). تمثل التشاكلات الأفقية مجموع السيمات النووية لكل سيمم تابع لسلسلة كلامية معينة، أو مجموع الصور السيمية المشتركة بين عناصرها. أما التشاكل العمودي فهو الذي يربط بين مجموع السيممات التابعة لحقول دلالية مختلفة.و من ثم سيكون على هاته التشاكلات أن تتمفصل فيما بينها من خلال التشاكلات الاستعارية (métaphoriques) تقوم على الأسنة الجزئية للحقول السيمية(46). و بهذا فإن المعنى لا يتضح من خلال تشاكل واحد، و إنما من خلال التعالق – الداخلي لجميع التشاكلات.

إن القراءة الأحادية التي تسعى للوصول إلى معنى واحد من خلال كل نص تقوم على وجود تشاكل واحد. و كأن معنى النص هو نص النص أو النص- الواصف بما أن هذه النظرية الوصفية تفضل الانحصار في تشاكل واحد" فهي تقدم إذن قراءة لأثر معنى واحد للنص، دون الاهتمام بالشروط البنوية لإنتاج المعنى"(47). وهذا ما يمثل تقنية تأويلية بسيطة تقوم على التقليص. لأنها تخضع النص المتعدد التشاكلات " لرقابة حقل وحيد المعنى" فالتشاكل الذي يجمع – في نظر "فونتاني" Fantanille – بين مفهومي الانسجام والاتساق، يقوم عليهما بوصفهما طرقا مختلفة تعمل على تجميع الأجزاء من أجل كلية واحدة(48).

و يقدم التشاكل شكلا واحدا لهذه التجميعات حيث سيكون لكل جزء عنصرا مشتركا من أجل إنتاج الكل. دون الاهتمام بالجانب الثاني من إنتاج المعنى المتمثل في الغياب لأن كل صورة هي، في الحقيقة، حضور و غياب " بالنسبة إلى حدث خارجي عن النص أي بالنسبة إلى واقع تاريخي ... أي إلى معرفة مكتوبة أو مسجلة مسبقا"(49) كالاستعارة التي تظل منفصلة عن اللغة التي لا تمتلك طابعا إيديولوجيا بل هو " الاستعمال

الذي تستعمل به"(50). و نستنتج من ذلك أن تحليلا كهذا يتناول تعدد المعاني من أجل الإقرار بوجود معنى حقيقي واحد، أخذا بمفهوم التشاكل الأساسي مع " غريماس " أو تشاكل القاعدة عند "Klinkenberg"، أو التشاكل المركزي مع "فان ديك" (Van Dijk)(51). مما يقابل التحليل الذي يعتمد آلية البحث عن العلاقة الداخلية التي تجمع كل التشاكلات الممكنة التي يقدمها الخطاب ضمن رؤيا تقوم على أن فهم معنى رسالة ما يتم بالاعتماد على عناصر هاته الرسالة من كلمات و جمل. إلا أن المتلقي في حين استقباله رسالة ما يصعب عليه في حالات كثيرة تحديد الاستنتاجات الممكنة لتعيين قصد منتج الرسالة لأنه في حاجة إلى معلومات إضافية خارجة عن الصيغ الكلامية لكنها توضحها ؛ و تقدم " حقائق عن العالم"(52) تمثل أساس فهمنا للخطاب. إذ ليست سوى جزء من معرفتنا الاجتماعية الثقافية العامة. لأن كيفية معرفة النص هي حالة خاصة من كيفية معرفتنا للعالم بأسره، بوصفها خبرات سابقة. حيث ستقابل السياق الكلامي أنسقه ذهنية هي " الخلفية المعرفية المنظمة التي تقودنا إلى أن نتوقع أو نتنبأ بمظاهر معينة في تأويلنا للخطاب "(53) مع التأكد على اتساعها الذي ينفي أن تكون قيودا حتمية لتحديد كيفية فهمنا للخطاب. لأن المعنى ليس محايثا للنص بوصفه مرسلة"(54)وإنما لحالة تواصلية تضم، في الحقيقة، باثا ومتلق بوصفهما مجموعة من الشروط" هي شروط تداولية شاملة.

يمكننا إذن في آخر هذا الحديث أن نتناول ركني الكاتب والقارئ بوصفهما مسؤولين على الفعل القرائي لهذا المستوى الاستعاري. لنتحدث بداية عن مسؤولية الكاتب التي تكمن في التحكم في مستوى الدلالي ودرجة تعقيده للاستعارة: استعارة مفهومية واستعارة مرجعية، لأن القارئ مرهون في فهمه على إيجاد السيم المشترك بين كلمتين هما المشبه والمشبه به. فإن حضر في النظام السيميائي لهذا النص ما يدل على هذا السيم ستسهل العملية التأويلية عند القارئ لأن النص لا يتطلب منه إحالة كبرى على معلومات خارج- لسانية. أما وإن زاد الكاتب من صعوبة العملية هاته بعدم ذكره لأي علامة توضح السيم المشترك بين ركني الاستعارة، فعلى القارئ إذن أن يتحمل كل المسؤولية في تأويل الاستعارة، بمعنى أن النص لا محالة محتاج إلى معلومات من العالم الخارجي وهذا هو باب فتح المغاليق التي أحكمتها السيميائيات المحايثة على النص الأدبي.

الهوامش

[1] -Greimas. Courtes, o.p., p197.

[2] -Groupe d'entreverne , Analyse sémiotique des textes, presse université, lyon, 4ieme édition, 1984, p. 123.

[3] -Groupe d'entreverne , Analyse sémiotique des textes, presse université, lyon, 4ieme édition, 1984, p. 123.

[4] -Groupe d'Entreverne, Analyse sémiotique des textes, P 123, Presse université, Lyon, 4ieme édition, 1984.

[5] -B. Pottier, linguistique générale. Théorie et description, klincksieck, Paris 1974, P 30

[6] -Jhon Dubois et autre, Dictionnaire de linguistique, éd.larousse, Paris 1973, p. 90. -

[7] -Greimas, Sémantique structurale, p.30.

[8] -François Rastier, sémantique interprétative, p. 89.

[9]-François Rastier, sémantique interprétative, p.102.

[10] -Searle, sens et expression, tra. Joelle Proust, Minuit, Paris 1979, p.167.

[11] -Greimas, Sémantique structurale, p.30.

[12] -F. Rastier, Sémamtique interprétative. A propos de Berrondonner " quelques aspects logiques de l isotopie.

[13]- Helmeslev, Prolégomènes a une théorie du langage

[14] -Francois Rastier, Semantique interpretative, p. 25.

[15] -U. Eco, Semiotique et philosophie du langage.

[16] -Petitot, Morphogenèse du sens, PUF, Paris, 1970, p. 215.

[17] - Francois Rastier, Sémantique interprétative, p. 26

[18] -Petitot, Morphogenèse du sens, p. 216.

[19] Meyer, logique. Langage et argumentation, Hachette, Paris, 1982, p. 17.

[20] -Frege, Ecrits Logiques et philosophiques, Seuil, Paris, 1971, p. 136.

[21] -Ibid, p. 104.

[22] - Meyer, op-cit, p. 49.

23 -Ducrot, Todorov, Dictionnaire encyclopédique du langage seuil, Paris, 1972, p.p. 131-138.

[24] - Meyer, logique. Langage et argumentation, p. 29.

[25] -Frege, Ecrits Logiques et philosophiques, op-cit, p102.

[26] - Meyer, op-cit, p. 96.

[27] -Vigner, Lire: du texte au sens, clé International, Paris, 1979, p. 146.

* " On appellera Image la représentation d un univers dans le discours " dans: Robert Martin, Langage et croyance, les univers de croyance dans la théorie sémantique, Mardaga, Bruxelles, 1987, p.19.

[28] -Frege, Ecrits Logiques et philosophiques, p. 107.

Kerbrat " cathrine ", L énonciation, Armond colin, 4eme éd, Paris, 1999, p. 20.29

Ibid, p. 20. 29

[30] -Ibid, p. 22.

[31] -Kerbrat " cathrine ", L énonciation, Armond colin, 4eme éd, Paris, 1999, p. 20.

[32]Kerbrat " cathrine ", L énonciation, p. 230.

** " Il ne faut pas oublier que la référence et " probablement " le sens d un signe changent avec le contexte de la phrase dans lequel il apparaît ". Dans: Leonard linsky, le problème de la référence, Seuil, Paris, 1974

[33] -Kerbrat, L énonciation, p. 230. Ibid, p.p. 40 – 4132

[34] -Lyons, linguistique générale, Trad. Dubois – charlier t D. Rolinson, Larousse, Paris, 1970, p. 308.

[35] -Eco, Sémiotique et philosophie du langage. PUF, Paris 1988, p. 67.
[36] Ibid, p. 67.
[37] -Alain Rey, théorie du signe et du sens, Klincksieck, Paris, 1969, P 85.
Ibd, P 162. -38
[39] - Robert Martin, Langage et croyance. Les univers de croyance dans la théorie sémantique, Mardaga, Bruxelles, 1987, p. 16.
40 -Searle, sens et expression, p. 168.
[41] -Ibid, p. 168.
[42] -Searle, sens et expression, p. 183.
[43] -Rastier, systématique des isotopies in essais de sémiotique poétique, larousse, Paris, 1972,. p.p. 85 – 88.
[44] - Ibid, p 92.
[45] -Ibid, P 97.
[46] -Jacques Fantanille, sémiotique et littérature, PUF, Paris 1999, p.18.
[47] - Philipe Hamon, texte et idéologie, PUF, France 1982. p.15.
[48] - Ibid, p.15.
[49] فان ديك: النص و السياق. استقصاء البحث في الخطاب الدلالي و التداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999.
[50] -براون، يول، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد لطفي الزليطني. منير التريكي، النشر العلمي و المطابع جامعة الملك سعود، 1997، ص: 270
[51] م س، ص: 296.
[52]-Rastier, sens et textualité,éd.Hachette ,Paris,1989,p.16.